أثر المنهج الوصفي في الدرس العربي الحديث

زيام هدى
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة.

تهدف هذه المداخلة إلى تسليط الضوء على "أثر المنهج الوصفي الغربي الحديث على الدرس اللغوي العربي، وذلك بما يحمله من أفكار ونظريات واتجاهات.

فقد كان لهذا المنهج حضوره المتميز في العالم العربي وبخاصة في العصر الحديث؛ فهو عصر سيادته في الدراسات اللغوية العربية وكذا في الدراسات النقدية والأدبية والنفسية...الخ.

وقد كان ذلك نتيجة التلاقح بين الدرسين العربي والغربي، مما شكل حركة فكرية لغوية جديدة في عالمنا تدعوا بإلحاح إلى تطبيق هذا المنهج في دراسة اللغة وتحليل أنظمتها.

وعليه سنأخذ نماذج حية من الباحثين العرب الذين تبنّوا المنهج الوصفي في دراساتهم أمثال: تمّام حسّان، عبد الرحمان أيوب، كمال بشر...

أثر المنهج الوصفي في الدرس العربي الحديث

1. مقدمة:

كانت الدراسات اللغوية في أوربا في القرن التاسع عشر –وبخاصة في ألمانيا– تقوم على تطبيق المنهج التاريخي المقارن، الذي تعود بداياته الأولى إلى القرن الثامن عشر؛ وهي الفترة التي احتلّ فيها الإنجليز الهند، فمنذ أعلن السير وليم جونز " Sir w.Jones " آراءه عن اللغة السنسكريتية(1) لغة الهند القديمة عام 1786م أخذت دراسة اللغة تسلك

سبيل التأريخ والمقارنة طوال القرن التاسع عشر، فكانت السنسكريتية أساس البحث اللغوي الغربي.

وظل هذا المنهج سائدا حتى جاء دي سوسير Ferdinand De Saussure (1857-1913م)، وهو -كما يطلقون عليه- أبو اللسانيات ومؤسس علم اللغة الحديث (اللسانيات أو الألسنية) دون نزاع، وهو صاحب فكرة المنهج الوصفي، فكان أن عارض هذا الاتجاه "التاريخي المقارن" في البحث اللغوي(2)، حين أعلن "أنّ موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها" وقرّر أنّ اللغة ينبغي أن تدرس حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محدّدة(3)، واتخذ لذلك مصطلح "Synchronic" الآنية للدلالة على هذا المنهج الذي ساد علم اللغة منذ ذلك الحين.

2. المنهج الوصفي وخصائصه في اللسانيات الأوربية والأمريكية:

شهد علم اللغة الحديث كما رأينا تطورا هائلا منذ أوائل هذا القرن، واستقرّت أصوله فيما يعرف "بالمنهج الوصفي" فما هو هذا المنهج؟ وما هي ملامحه وأفكاره في دراسة اللغة؟ وكيف يسير؟ وما هي اتجاهاته؟.

مفهوم المنهج الوصفي (ملامحه واتجاهاته):

يعنى علم اللغة الوصفي بدراسة الظاهرة اللغوية وذلك بوصفها في لغة معينة وزمن محدّد، ولا يميّز هذا المنهج في تناوله للظواهر اللغوية بين اللغة واللهجة(4). فهو يهتم إذا بدراسة "اللغة" أو "اللهجة" عن طريق الوصف الدقيق لأصواتها ومقاطعها وأبنيتها الصرفية، وتراكيبها النحوية التي تعبر عن مجموعة من المعاني، ودلالة ألفاظها في ضوء العلاقات السياقية داخل النصّ(5).

وهذه الدراسة هي أساس المنهجين الآخرين، إذ لا يمكن تطبيق المنهج التاريخي ولا المنهج المقارن إلاّ بعد الفراغ من المنهج الوصفي(6).

ويقوم هذا المنهج على وجوب التفريق بين النظرتين "التاريخية والوصفية" في الدرس اللغوي؛ فالنظرة التاريخية لا تمثل سوى محورا رأسيا لدراسة العلاقات بين الأشياء والعناصر المتحركة، في حين أنّ النظرة الوصفية تمثل محورا أفقيا أو عرضيا لدراسة

العلاقات بين الأشياء والعناصر الثابتة، "فالآنية" تدرس الظاهرة اللغوية أين تكون مستقرة استقرارا نسبيا، وتدرس في فترة زمنية محدّدة كأنّها ثابتة(7)، بينما تدرس "الزمانية" الظاهرة اللغوية في جميع مراحلها التطورية؛ كيف كانت؟ وكيف صارت؟.

ومن ملامح هذا المنهج أنّه يصف الواقع اللغوي كما هو ويستبعد الأحكام المعيارية: والفلسفية، والمنطقية والتعليلية(8).

ويسير المنهج الوصفي على الخطوات التالية:

1.جمع المادة اللغوية من مظانها الأصلية الموثوق بها، هذا إذا كانت تلك المادة مدونة مكتوبة، أمّا إن كانت المادة حية منطوقة فالمعتمد فيها على المخبر اللغوي (الرواية) بمواصفاتها المتفق عليها.

2. تحديد المستوى اللغوي الذي تنتمي إليه العيّنة اللغوية المراد وصفها وتحليلها والبعد عن الخلق بين مستويات اللغة عند التحليل والتقعيد اللغويين.

3. تحديد البيئة المكانية والزمانية للمادة اللغوية المدروسة.

وإذا كان "لسوسير" الفضل في تأصيل قواعد "المنهج الوصفي" نظرا وتطبيقا، فإنّ اللغوي الأمريكي "بلومفيلد" BloomField (1887–1949) الفضل في توضيح وتوسيع إطار اتجاه جديد تمخّض عن الوصفية يدعى بالمنهج البنائي أو البنيوية الوصفية(9).

وقد تطورت أفكار هذا المنهج في دراسة اللغة، وتوسعت دائرته، وتشعّبت اتجاهاته، لتشمل التحليل التصنيفي Taxonomic الذي يعتمد على النظرية التوزيعية، والتحليل الشكلي Formalistic الذي يعتمد على الشكل دون المضمون، والتحليل الوظيفي والاجتماعي، والتحويلي، ومنهج التحليل إلى المكونات المباشرة...الخ(10).

3.المنهج الوصفي في الدرس العربي القديم:

ليس القول بأنّ العرب القدماء بدؤوا دراساتهم اللغوية بالاعتماد على المنهج الوصفي ببعيد عن الحقيقة، ذلك لأنّ سمات هذا المنهج لم تكن غائبة عن الدرس اللغوي عندهم، فقد اهتدى إليها أبو الأسود الدؤلي إذ قال لكاتبه " إذا رأيتني قد فتحت فمي

بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت"، وهذه الطريقة هي وصفية محضة.

كما اهتدى إليها سيبويه وطبّقها في أوّل كتاب لغوي عربي، بشكل ينمّ على صواب منهجه، وريادته في هذا المجال(11) سواء أكان ذلك على مستوى الأصوات، أم الصرف أم النحو.

ونجد في الكتاب لسيبويه كثيرا من الطريقة الوصفية في رصد الظواهر اللغوية (صرفا ونحوا)، فنجده يعتمد على طريقة المشافهة للعلماء الموثوق بهم، واعتماده على سؤال الأعراب الخلّص الموثوق بدقة لغتهم.

والحقيقة أنّ الأعمال الأولى في البحث اللغوي العربي امتزج فيها الوصف والتفسير، وانصبّ التحليل على الصورة الظاهرة حينا، وعلى الصورة الباطنية حينا آخر، إذ كان النحاة يفرّقون بين العناصر التي تعود إلى التركيب وبين الظواهر الخطابية التي تتحقق بها الفائدة من الكلام.

وإذا ما رجعنا إلى هذه الأعمال وجدنا نصوصا كثيرة تزخر بالعبارات الوصفية مثل: سمعت- أصف –أحصي ، ولا يكاد يخلو تحليل سيبويه للكلام العربي للعبارات في كامل كتابه من مثل قوله: (من ذلك قول العرب)، (وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول)...

ويرتبط التفسير عادة عند النحاة الأوائل بأغراض بلاغية كالخفة والاقتصاد، يقول سيبويه في باب الترخيم: (والترخيم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا، كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفا)(12).

4. الدراسات اللغوية الوصفية العربية في العصر الحديث:

أ. العربية وبداية الاتصال بالفكر اللغوي الغربي:

قد يكون من الصعب تحديد البدايات الأولى لانتقال الفكر اللغوي الحديث إلى ميدان التفكير اللغوي في مصر والعالم العربي، ولكنّ الذي لا ريب فيه أنّ هذه البدايات

الأولى ترجع بصورة أو بأخرى إلى بداية الاتصال بالحضارة الغربية في العصر الحديث.

فبعد أن اتّصل طلاب البحث العلمي بطرق البحث اللغوي في أوربا وأمريكا. في أواخر النصف الأول من القرن العشرين، وأوائل النصف الثاني منه، أدركوا بعد عودتهم من البعثة ضرورة الربط بين التراث العربي الأصيل، ونظريات البحث الحديث، ومن ثمّ بدأت تتشكل ملامح حركة لغوية جديدة في العالم العربي بالمنهج الجديد ومحاولة تطبيقه على اللغة العربية، واستئناف النظر في أعمال القدامى على ضوء مناهج الدرس الحديث.

ولا غرو في أنّ هؤلاء الباحثين الروّاد يشكلون بأعمالهم العلمية حلقة الوصل بين التراث والمعاصرة، بدأها عالم الاجتماع الدكتور: علي عبد الواحد وافي (ت: 1991م)؛ بمؤلفيه (فقه اللغة) و(علم اللغة) (نشر عام:1941)، اللذين قدّما بطريقة تفتقر إلى المنهجية والوضوح فروع ومجالات علم اللغة، كما كانت معروفة في أوربا خلال النصف الأوّل من القرن العشرين.

كما يظهر فيها عدم الدّقة في التفرقة بين: المنهج "التاريخي المقارن" والمنهج "الوصفي" في تقسيمه لفروع علم اللغة، وكلّ هذا يدلّ على أنّ د/ علي عبد الواحد وافي، كان يفهم من مصطلح علم اللغة أنّه يختصّ بالدراسة التاريخية، لمقارنة دون علم اللغة الوصفي (13) وقد ظلّ هذا الكتابان، مرجعين أساسيين في الدراسات اللغوية في الجامعة وغير الجامعة حتى عاد أوّل مبعوث مصري لدراسة علم اللغة دراسة متخصصة وهو د/ إبراهيم أنيس (1906-1978م) بمؤلفاته المعروفة الرائدة (الأصوات اللغوية، من أسرار اللغة، موسيقى الشعر، في اللهجات العربية، دلالة الألفاظ، مستقبل اللغة العربية المشركة).

فالدكتور: إبراهيم أنيس لم يشغل نفسه كثيرا بالتنظير، وتقديم أصول ومبادئ هذا الفكر اللغوي الجديد، وإنّما مضى يطبّقه على اللغة العربية تطبيقا مباشرا، معتمدا عليه في نقد بعض آراء القدماء،وكذا تحليل بعض الظواهر اللغوية المختلفة والتعليل

لها، ويبدوا أنّ خطة د/ أنيس تهدف إلى تقديم المنهج البنيوي الوصفي(14) الذي تلقاه من علماء اللغة في انجلترا تقديما علميا لأوّل مرّة في تاريخ الفكر اللغوي العربي الحديث بدراسة ثلاثة كتب تمثل مستويات اللغة العربية (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، وهذه الكتب هي:

1. الأصوات اللغوية (قدّم دراسة متكاملة عن الأصوات اللغوية وطرق دراستها بعامة، وأصوات اللغة العربية خاصة، وذلك وفق المنهج الحديث).
2. في اللهجات العربية.
3. دلالة الألفاظ.

وممّا يلفت النظر أنّ د/ أنيس يفرّق بوضوح بين الوصفية والتاريخية، لكنّه لم يفصل في بيان الفرق بينهما، وإنّما اكتفى بالإشارة إليهما(15).

كما شارك بهذه الحركة اللغوية الدكتور: محمد منذور (ت:1965)، مترجم كتاب ظهر مع نهاية الخمسينيات من هذا القرن، وكان له أثر واضح في إلقاء الضوء على التفكير اللغوي الغربي، والذي ترجمه عن الفرنسية تحت عنوان: "منهج البحث في الأدب واللغة"؛ ففي المقالة الثانية المترجمة عن عالم اللغة الفرنسي أنطوان ميه، يظهر بشكل واضح منهج التحليل اللغوي البنيوي إلى مستوياته المختلفة، بل وتتضح بعض الحقائق حول النظرية الحديثة، سواء على مستوى التحليل البنيوي أو الدراسة التاريخية المقارنة، أو بعبارة أخرى، يتضح الفرق بين البنيوية والوصفية والدراسة التاريخية.

والدكتور: محمد القصّاص، والأستاذ عبد الحميد الدواخلي، مترجما كتاب "اللغة" لفندريس(16).

وعلى الرغم من غموض ترجمة بعض المصطلحات، وكذلك بعض العبارات إلاّ أنّ ترجمة هذا العمل الضخم قد وضعت بين يدي القارئ العربي مع نهاية النصف الأول من هذا القرن حقائق أساسية عن علم اللغة البنيوي(17).

لقد كان لمؤلفات هذا الجيل من الروّاد اللغويين وزنها المعرفي في سجلّ الحركة اللغوية الحديثة، لأنّها مهّدت للغوص في تفاصيل النظرية اللغوية الحديثة بصورة أكثر دقة

وعمق، كما كانت سبيلا لدراسات أخرى كوّنت مع نهاية السبعينيات من هذا القرن جيلا ثانيا تميّز بأنّه كان من أبناء مدرسة لغوية واحدة، هي مدرسة لندن، التي أسّسها العالم اللغوي الإنجليزي فيرث، ومن هنا يمكن أن نضعه يحيل "الوصفيون العرب"، أتى بعد هؤلاء الروّاد بعضهم كان تلميذا لهم، وبعضهم تتلمذ على كتبهم، والذي أسهم بشكل واضح في بلورة هذه الحركة، سواء في مصر، أو العالم العربي.

العربية والبنيوية الوضعية:

إنّ المحاولات الجادة للدكتور: تمّام حسّان، والدكتور عبد الرحمان أيوب، والدكتور محمود السعران (ت1963م)، والدكتور حسن ظاظا (ت1999م)، والدكتور كمال بشر ...الخ، تعدّ نماذج حيّة لنقل المنهج الوصفي الغربي إلى العربي ومما يحويه من أفكار ونظريات واتجاهات، ولقد اختلفت اتجاهات الجيل التالي إلى جيل الرواد في تقديم علم اللغة للباحث العربي اختلافا واضحا، ويمكن أن نجمل هذه الاتجاهات في تيارات ثلاثة صاحبت تقديم النظرية اللغوية الحديثة وهي:

أ. الوصفية ونقد التراث اللغوي العربي.

ب. التحليل البنيوي للغة.

جـ. تطبيق النظرية العربية الحديثة على اللغة العربية.

أولا: الوصفية ونقد التراث اللغوي العربي:

وكانت نقطة البدء في تناول هذا المنهج عند هؤلاء هو التعريف به، مع التركيز بشكل خاص على أثره في تيسير النحو العربي، والقضايا التي عالجوها في ضوءه سواء ما كان متصلا بمنهج النحو أو بأصوله: وتبعا لهذا وجّه الوصفيون العرب نقدا لمنهج النحاة العرب تمثل في:

* أنّ الدرس اللغوي عند العرب متأثر بالفلسفة اليونانية وبالمنطق الأرسطي.

* اتصافه بالمعيارية (والتي حدّدها تمّام حسّان في أمور ثلاث هي:

1. القياس والتعليل.

2. الاحتكام إلى مستوى صوابي معين والخلط بين المستويات الصوابية.

3. إيمان علماء العربية بأنّ السليقة اللغوية طبع لا اكتساب.

* اعتماده في التأصيل والتقعيد النحوي على لغة الشعر.

* خلطه بين مستويات الأداء اللغوي.

*عدم استعانته بالدراسات المقارنة في معالجة القضايا النحوية(18).

وقد رأى أصحاب هذا الاتجاه أنّ تطبيق المنهج الوصفي هو الحافز إلى ارتكاب سبيل التجديد، واستظهار وجوه القصور في القديم ومن ثمّ اجتمعت هذه المحاولات على أنّ في القديم قصورا(19) لا بد من علاجه على طريقة تختلف عن الطريقة التي ارتضاها القدماء، ومنهجهم في ذلك هو المنهج الوصفي؛ أي يحاولون قراءة التراث النحوي العربي من وجهة نظر علم اللغة الوصفي الحديث.

ويمثل هذا الاتجاه الدكتور عبد الرحمان أيوب (دراسات نقدية في النحو العربي) 1957م، فإنّه نقد التراث النحوي العربي، وقدّم له الأستاذ إبراهيم مصطفى (وهو ناقد قديم للنحو العربي)؛ ولقد وصف عبد الرحمان أيوب علماء اللغة العربية القدماء، والنحو العربي بمصطلح "التقليدية" وهو تبني لوجهة نظر أوربية، وعرض لبعض الأبواب النحوية بدراسة ناقدة في ضوء المنهج الوصفي الشكلي، أو المدرسة التحليلية الشكلية الأمريكية.

ولقد أقام الدكتور أيوب نقده للتفكير النحوي عند العرب على مبدأ: الوصفية مقابل التعليلات الفلسفية والمنطقية، واستبعاد المعنى، أو الدلالة، عند تصنيف الوحدات اللغوية وتوزيعها مع الاعتماد على الشكل والوظيفة في وصف النظام النحوي، ولئن لم يكتب لهذه المحاولة الاستمرارية لتشمل بقية الأبواب النحوية، ورغم ما أبدي من تحفظ نحوها ونقد لها(20)، فإنّها أفادتنا بمنهج لغوي حديث، يمكن من خلالها تيسير النحو.

أما الكتاب الثاني الذي نعده من الكتب النظرية التي قدمت المنهج الوصفي إلى الفكر اللغوي العربي الحديث، بصورة أكثر دقة، وأكثر شمولا(21) فهو كتاب الدكتور تمّام

حسّان: "اللغة بين المعيارية والوصفية"، فقد كان بمثابة الدعوة إلى المنهج الوصفي والتنظير له، ولقد استخدم الدكتور تمّام حسّان في وصف الدراسات النحوية العربية مصطلحا استمده من التفكير العربي الأوربي وهو مصطلح المعيارية "Perspective" في مقابل الوصفية، "Descriptive".

أمّا الكتاب الثالث من الكتب اللغوية الحديثة التي تعرضت للتراث العربي فهو كتاب: د/كمال بشر، "دراسات في علم اللغة" (1971م) وفي هذا الكتاب بحث عن التفكير اللغوي عند العرب في علم اللغة الحديث؛ ولا يعرض لهذا البحث بصورة مباشرة، وإنما يحاول الكشف عن جوانب من هذا التفكير تتفق وعلم اللغة الحديث.

ثانيا: التحليل البنيوي للغة:

ومن أهم الكتب التي تناولت مستويات التحليل اللغوي كتاب د/ تمّام حسّان: مناهج البحث في اللغة (1955م)، ويستخدم د/ تمّام في هذا الكتاب مصطلح "مناهج"، استخداما خاصا يقصد به ما يستخدم علماء اللغة المحدثين في الدلالة عليه مصطلح "مستويات" وهو يقسّم هذه المستويات إلى ستة مستويات أو مناهج –كما يسميها– وهي:(منهج الأصوات، ومنهج التشكيل الصوتي، ومنهج الصرف، ومنهج النحو، ومنهج المعجم، ومنهج الدلالة).

وينطلق د/ تمّام حسّان في التحليل البنيوي للغة من نظرية يصفها بأنّها "نظرية جاءت نتيجة تجارب القرون في الغرب، فهيكلها غربي، وتطبيقها على اللغة العربية هو القسط الذي أنا مسؤول عنه في هذا الكتاب"(22).

وهذا التطبيق على اللغة العربية كما يقول تمّ على مستوى اللغة الفصحى أولا، مع التمثيل أحيانا باللهجات العامية، معنى هذا أننا أمام نظرية غربية، وتطبيق لهذه النظرية على العربية الفصحى؛ هذا التطبيق في الحقيقة هو شرح لطريقة تناول كل مستوى من مستويات التحليل اللغوي السابقة من خلال أمثلة من اللغة العربية(23) وأهمية هذا الشرح أو التطبيق –كما يسميه– ترجع إلى استخدام مبادئ النظرية اللغوية الحديثة ومستوياتها في التحليل بصورة مباشرة وعلمية.

وكتاب د/ محمود السعران "علم اللغة مقدمة للقارئ العربي" (1962م).

من عنوان الكتاب نشعر بصورة مباشرة أننا أمام علم غريب على القارئ العربي، ومن ثم فهو يسعى لتقديم الأصول النظرية والتحليلية للبنيوية الوصفية بشكل واضح وبسيط، بل لعله الكتاب الوحيد بين كتب الوصفيين التي اهتمت بالإطار التاريخي للفكر اللغوي الإنساني بما له من صلة بتطور علم للغة بعامة والبنيوية الوصفية خاصة.

ويحوي هذا الكتاب على مقدمات أساسية حول مفهوم علم اللغة وموضوعه لينتقل إلى التحليل البنيوي للغة، ود/ السعران –رحمه الله– من أوائل الذين استعملوا مصطلح "بنية" Structure ، والبنيوية Structuralisme، وتحليل البنية عنده تبدأ بالمستوى الصوتي وتمثل الدراسة الفنولوجية عنده صلب الدراسة البنيوية، ثم التحليل النحوي الذي يتناول موضوعين: المورفولوجيا والنظم، وهذا التناول يتم بناءا على أصول شكلية أو صورية، لأن هدفه هو الصور اللفظية وتصنيفها على أسس معينة. أما المستوى الدلالي فيغلب عليه الطابع التاريخي أكثر من التحليلي وهو يقرر أن دراسة المعنى أو علم الدلالة كفرع من فروع علم اللغة هو غاية الدراسات الصوتية والفونولوجية والنحوية والقاموسية إنّه قمة هذه الدراسات.

ومن أهم الكتب كذلك التي تناولت مستوى واحد من مستويات التحليل اللغوي كتاب د/ عبد الرحمان أيوب "أصوات اللغة" (1968م)، وهو أول مؤلّف عربي يتناول بتفصيل دقيق معظم الجوانب التشريحية في دراسة الأصوات على نحو يمتاز بالدقة العلمية والوضوح.

ثالثا: تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية:

لا شك أن كتاب د/ تمّام حسّان "اللغة العربية معناها ومبناها" يقف وحيدا في مجال تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية، لذلك فأهمية الكتاب تأتي من حيث هو محاولة تطبيق الوحيدة التي أسفر عنها الاتجاه الوصفي، كما تأتي أيضا من تجاهل هذا التطبيق وعدم تقويمه أو التعرض له أو مناقشته طوال ثلاثة عشر عاما تقريبا منذ نشره برغم دعوة صاحبه جمهور الدارسين إلى ذلك(24).

ويرى تمّام أنّ ميدان المنهج هو الميدان الحقيقي والخصب لمحاولات الإصلاح النحوي، وإذا كان ثمّة اضطراب أو تعقيد في شيء من ظواهر اللغة، فهو في أغلب الأحيان إن لم يكن دائما نتيجة قصور أو ضعف في المنهج(25). ومجال هذا الكتاب كما يقول مؤلفه "هو اللغة العربية الفصحى بفروع دراستها المختلفة...من الأصوات إلى الصرف إلى النحو إلى المعجم إلى الدلالة"(26).

وفي هذا الكتاب قدّم د/ تمّام نظريته في "القرائن النحوية" التي تنطلق من أنّ الغاية التي يسعى إليها الناظر في النصّ هي فهمه، وأنّ وسيلته إلى ذلك أن ينظر في العلامات المنطوقة أو المكتوبة في النصّ (أي الأمثلة الكلامية) ليصل بواسطتها إلى تحليل المبنى، ولقد قسم القرائن إلى: مقالية وحالية، وقسّم المقالية إلى قرائن لفظية وقرائن معنوية، وقسّم المعنوية إلى خمس قرائن تحت كلّ واحدة فروع في الغالب وهي: (الإسناد، التخصيص، النسبة، التبعية، المخالفة)، وقسّم اللفظية إلى ثماني قرائن هي: (الإعراب، الرتبة، الصيغة، المطابقة، الربط، التظام، الأداة، التنغيم) (27). وهذه النظرية تتعدد في نطاق الجملة للكشف عن المعنى الذي يعدّ في نظر د/ تمّام هو الموضوع الأوّل والأخير لكلّ دراسة لغوية، كما ترفض هذه النظرية فكرة العامل النحوي بل تلغيه نهائيا، وكذا التفسيرات المنطقية والتعليلات الفلسفية، والحكم بالشذوذ والقلّة، والضعف والقوّة، وتعدد الأوجه الإعرابية.

كما أنّ هناك دراسات أخرى تناولت قضايا نحوية في ضوء المنهج الوصفي البنيوي أو المنهج الوصفي الوظيفي، كما هي الحال في بحث د/ محمد الشاوش(ملاحظات بشأن دراسة تركيب الجملة في اللغة العربية) (28 وبحث د/ جعفر دك الباب (مدخل إلى اللسانيات العامة والعربية –المنهج الوصفي الوظيفي) (29).

وعلى الرغم مما لقيته هذه المحاولات التيسيرية القائمة على أفكار المنهج الوصفي من نقد على المستويين النظري والتطبيقي إلاّ أنّ آثارها كانت ايجابية على الحركة اللغوية في القرن العشرين.

هذا في مصر، أمّا في بقية أقطار العالم العربي فهناك: د/ عبد القادر الفاسي الفهري، ود/ أحمد المتوكل، من المغرب، ود/ عبد السلام المسدي، ود/ عبد القادر المهيري، ود/ الطيب البكوش، من تونس، ود/ داود عبده، ود/ نهاد الموسى، ود/ خليل عمايرة، من الأردن، ود/ أنيس فريحة (ت1992)، ود/ ميشيل زكريا، ود/ مهدي المخزومي، ود/ فاضل الساقي، من العراق...

وبعد، فهكذا رأينا المنهج الوصفي من خلال أعلامه في العالم العربي ومدى إسهامهم في إثراء الحركة النحوية المعاصرة.

الخاتمة

والنتيجة التي نخلص إليها من هذه الدراسة:

- أنّ تلاقح الفكر اللغوي العربي بمناهج تحليلية ونظريات علمية من التفكير في اللغة والبحث فيها لم يألفها التراث اللغوي العربي بل و لم وتكن ضمن أصوله وإنّما كانت في الفكر اللغوي الغربي.
- أنّ المنهج الوصفي ارتبط في مرحلة من مراحله بالمنهج البنائي أو البنيوي، فظهرت الدراسة البنيوية الوصفية.
- تمخضت عن المنهج الوصفي ونظرياته اتجاهات مختلفة وهذا ما انعكس على اللغويين العرب الوصفيين، فبدا كما لو أنّ هناك تعارضا وتناقضا بين أصحاب المنهج الواحد.
- التيار النقدي للتفكير اللغوي العربي القديم، اكتشف أنّ المنهج الوصفي ليس جديد كله على نحو العربية، بل فيه من القواسم المشتركة مع النحو والنحاة العرب الشيء غير القليل.
- بيان أثر المنهج الوصفي على الدرس النحوي العربي المعاصر، وارتباط اللغويين الوصفيين في مرحلة ما بحركة تيسير النحو وإصلاحه وبخاصة ما كان منها متصلا بالمنهج اتصالا مباشرا.

الهوامش

(1). وهي أنّ السنسكريتية واليونانية واللاتينية تنسب إلى لغة واحدة هي الهندوأوربية

(2). يجب أن نشير إلى أنّ: تأريخ الغربيين للدرس اللغوي كان مقصورا على مجهودات اللغويين الذين ينتمون إلى اللغات الهندية الأوربية، أي أنّهم لم يتعرضوا لدراسة اللغة عند العرب، بالإضافة إلى أنّ عمل اللغويين الغربيين قبل اكتشاف السنسكريتية كان منصبّا على اللغتين اليونانية واللاتينية، أي أنّ ميدانه كان اللغة المكتوبة وليس اللغة المنطوقة، كما أنّ هدفه كان هدفا تعليميا، و لم يميّز هؤلاء اللغويين بين علم اللغة وفقه اللغة، فالأوّل يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها ولا يدرس لغة معينة، وإنّما يشمل كلّ ظواهر الكلام الإنساني سواء كان أصحابه متحضرين أم بدائيين، وسواء كان ذلك في فترات قديمة أم حديثة، بينما الثاني يعالج موضوع اللغة باعتبارها "وسيلة إلى غاية أخرى" كدراسة الحضارة، الأدب من خلال اللغة.

(3). إنّ دراسة اللغة في حالة استقرارها هو ما يعرف الآن بالمنهج الوصفي.

(4). ينظر: د/ نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية الأزاريطة – الاسكندرية، 2000 ص295.

(5). د/ محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، كلية الآداب –جامعة الكويت، 2000 ص116.

(6). عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص21.

(7). الظاهرة اللغوية عند الوصفيين متحوّلة وليست ثابتة، لذا لا يمكن الفصل بين المنهجين التاريخي والوصفي إلاّ فصلا منهجيّا أثناء الدراسة العلمية.

(8). ينبغي أن نشير إلى أنّ هناك اتجاهين ظهرا في المنهج الوصفي، أحدهما تقريري، يتوقف فيه الباحث اللغوي عند حدود الوصف والتصنيف والتحليل، دون تدخل منه بالتفسير أو التعليل، والآخر تفسيري، يتجاوز فيه الباحث الوصف المجرد للحدث اللغوي إلى تفسيره وشرحه والتعليل له. (ينظر: د/ داود عبده، أبحاث في اللغة، مكتبة لبنان، بيروت، 1973م ص83 فما بعدها.

(9). أكدّ بلومفيلد في كتابه "Language": أنّ الدرس الوحيد للغة ينبغي أن يكون درسا وصفيا استقرائيا.

(10). استفاد بحثنا من: مقال للدكتور: عبد الرحمان بن حسن العارف، المنهج الوصفي وأثره في تيسير النحو العربي.

(11). د/ نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي –ليبيا، 1996م ص83، وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسن ص22، ودراسة في علم اللغة، د/ كمال بشر، ص57.

(12). أنظر: د/ شريف بوشحدان، دراسة نقدية تقويمية لمنهاج النحو بالمدرسة الأساسية الجزائرية (الطور الثالث أنموذجا)، أطروحةمقدمة لنيل شهادة دكتورا دولة –ل– اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار –عنابة–، 2004.

(13). راجع د/ علي عبد الواحد وافي، علم اللغة ص05 ومال بعدها، ود/ حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي: دراسة في الفكر اللغوي والعربي الحديث، دار المعرفة الجامعية –الاسكندرية، 1955، ص142 وما بعدها.

(14). علم اللغة البنيوي علم يقوم على أساس أنّ تحليل أي عنصر من عناصر اللغة لا يمكن أن يتم بمعزل عن بقية العناصر اللغوية الأخرى وهو من ناحية أخرى نظرية لغوية تطبق المنهج الوصفي في فحص اللغة ودراستها، فتنظر إليها على أنها وحدات صوتية تتجمع لتكون وحدات مورفولوجية لتكون هذه بدورها جمل وعبارات.

(15). للمزيد من التوسع أنظر إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1965، ص109، 154– وانظـــر: د/ حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص154 وما بعدها.

(16). ينتمي فندريس إلى المدرسة اللغوية الاجتماعية الفرنسية مثل "أنطوان ميه" ويتخذ من التحليل البنيوي منهجا في دراسة اللغة فهو يرى كما يرى ميه أن اللغة مركب معقد تمسّ فروعا من المعرفة المختلفة.

(17). د/ حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص166.

(18). للتوسع أكثر ينظر: د/ صلاح بكر، الوصفية في الدراسات العربية القديمة والحديثة، مجلة فكر وإبداع، الجزء 14 ، 2002 (القاهرة)، ص69–91، ود/ عبده الراجحي، النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية: ضمن تمّام حسّان رائدا لغويا، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2002، ص248 فما بعدها، د/ عزّ الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي: قراءة لسانية جديدة، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، كلية الآداب– سوسة، 1998، ص39 وما بعدها.

(19). د/ سعد عبد العزيز مصلوح، المذهب النحوي عند تمّام حسّان:

(من نحو الجملة إلى نحو النص)، مجلة كلية الآداب –جامعة القاهرة، مجلد 59، عدد3، يوليو 1999، ص263.

(20). ينظر: د/ عزّ الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي، ص117–119–202–204–205–209–261–265، ود/ حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص180.

(21). د/ حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص180.

(22). د/ تمّام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة –الدار البيضاء–، 1979، ص13.

(23). راجع مناهج البحث في اللغة، ص22–38–65.

(24). نعني بالنظرية العربية الحديثة، الإطار العام والتحليلي للبنيوية الوصفية التي سيطرت على الفكر اللغوي إلى ما قبل ظهور نظرية تشومسكي، كما نعني بها أيضا نظرية فيرث **Firth** التي تهتم بالمعنى وترى أن السياق أو العناصر غير اللغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى.

(25). استفادت مداخلتنا هذه من د/ حلمي خليل العربية وعلم اللغة البنيوي، ص220،219.

(26). د/ ممدوح عبد الرحمان الرمّالي، العربية والوظائف النحوية: دراسة في اتساع النظام والأساليب، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، 1996، ص46.

(27). د/ تمّام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة –الدار البيضاء

(28). نشرها أولا في مجلة الموقف الأدبي إتحاد الكتاب العربي بدمشق، العددان 135-136، 1982م، ص71-94، ثم نشرها ضمن أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بالجامعة التونسية، سلسلة اللسانيات، عدد5، 1983م، ص237-266.

(29). نشرها في مجلة الموقف العـربي، العددان، 135-136، 1982م، ص42-64/ ولمزيد من التفاصيل حول هذه الدراسة ينظر، د/ عطا محمد موسى، مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، دار الإسراء، عمان –الأردن، 2002، ص324-327